أبيدوس

اسمها القديم « أبدو » وتشتهر اليوم عند أهل الصعيد باسم العرابة المدفونة. كانت عاصمة الأقليم الثامن من أقاليم الصعيد ، وتقع على شاطىء النيل الأيسر ، وعلى بعد ستة أميال ونصف ميل من مدينة البلينة ، وتمتد أثارها ما بين العرابة والخربة ، وهى أقدس المدائن المصرية وأعرقها جميعاً . قامت من البلاد منذ أوائل عصورها التاريخية مقام عاصمة الدين . ففيها قبر أوزيريس ؛ وفيها أقدم هياكله ، وفيها معبده العظيم الذى بناه سيتى الأول ، ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة . وفيها مدافن الملوك المصريين من الأسرات التاريخية الأولى .

على أنه من العسير جداً أن نلم بتاريخ هذه المدينة أو نعرض له ، دون أن نتحدث عن الدين ودون أن نجعل الدين سبيلا للوصول إلى ما نريد . فنحن لا نكاد نعرض لتاريخ هذه المدينة حتى يطالعنا اسم أوزيريس ، إله المصريين المعروف . ولهذا الإله أسطورة عجيبة ممتعة لعلها أمتع ما ورد فى أساطير الأديان جميعاً . ولست أخفى على القارىء أننى أحببت الحديث عن هذه الأسطورة لأمرين ، أولهما واجب البحث ، لأننى كما قدمت لا أكاد أتعرض له دون أن أجعل الدين سبيلا إليه . وثانيهما أننى من أشد الناس كلفاً بهذه الأسطورة واطمئناناً إلى ما فيها ، من ذلك الغذاء الدسم الذى عاشت عليه الحضارة المصرية أجيالا وقروناً طوالا ، والذى ادخرت منه الأيام هذه الفضلات اليسيرة ، لأولئك الذين بحثوا فى تاريخ الحضارة المصرية من يونان ورومان . ولأولئك الذين خلفوهم من ألمان وفرنسيين وانجليز ، فأقبلوا عليه وأخذوا منه بمقادير تختلف زيادة ونقصاً . فمنهم من شبع ومنهم من زهد ، ومنهم من استساغ ذلك الطعام ثم هضمه فوفق ، ومنهم من ساء هضمه فأخفق . وأنا أرجو أن تكون الأيام ما زالت أمينة على بعض

هذا التراث ، وما زالت تدخره لأبناء البلاد ، حتى يتاح لهم أن يقبلوا عليه فيلتهموه جميعاً . وأدعو الله مخلصاً أن يزكو طعامهم ويصلح غذاؤهم ويحسن هضمهم ويتضاعف نشاطهم فى النهل من هذا المورد العذب ، لينالوا منه أعظم حظ وأوفر نصيب ، حتى يستطيعوا الألمام بحضارة بلادهم ، لأن الدين والحضارة توءمان ؛ فما ينبغى لدين أن يعيش بغير حضارة ، وما ينبغى لحضارة أن تقوم بغير دين ، ولأن أبناء مصر عموماً وأهل هذا الجيل بنوع خاص ، هم أولى الناس جميعاً بهذا التراث الخالد .

ولكم كنت أود أن أفصل هذه الأسطورة وأحاول شرحها وتحليلها ، غير أنى أخاف الخروج عن موضوع الحديث . على أننى أرجو أن أوفق إلى ما أريد فى غير هذا المكان قريباً إنشاء الله .

وما أخال أن بين طائفة القراء المثقفين ، من لم يسمع باسم أوزيريس وأسطورته العجيبة ، التى تنقلت مع الزمن والأجيال وتخطت مصر فركبت البحر إلى أوروبا ، ووجدت بين أهلها من يونان ورومان من أقبل عليها وتلقاها ، ثم ألفها وتعشقها واطمأن إلى ما فيها من حضارة ودين ، فأقامت عندهم حتى فرضت نفسها على الناس والأيام فرضاً . ومع ذلك فأنا أوثر اليوم أن أجملها فى هذا المكان اجمالا ؛ وأكاد أطمئن إلى أنه بين القراء ، من يعرف أن قدماء المصريين قد اطمأنوا منذ أقدم عصورهم ، إلى عبادة الأرض والسماء ، مثلهم فى ذلك كمثل غيرهم من أمم الدنيا جميعاً وأطمأنوا إلى أنهما زوجان ذكر وأنثى . وقالوا فى حديثهم عن خلق الدنيا إن الأرض والسماء كانتا رتقاً ثم أنفتقتا فكان الهواء . أما السماء وهى الأنثى فقد ارتفعت إلى حيث تكون يحملها الهواء ؛ وأما الأرض وهى الذكر ، فقد استقرت فى مكانها من أسفل السماء « بين السماء والماء » .

ثم ولد لهذين الزوجين أولاد أربعة هم أوزيريس ، وزيت ، وأيزيس ، ونفتيس ؛ أما أوزيريس فورث عن أبيه عرش الدنيا . وكان عادلا محبوباً .

أعطى الملك فأحسن سياسته . وأؤتمن على الشعب فرعاه ونهض به إلى خير ما ينهض الملك الصالح البار بشعبه الكريم المحبوب . علمه الزرع والضرع . وشرع له الأحكام والقوانين . وأما زيت فقد كره أن يؤول الملك إلى أخيه ، وامتلأ قلبه حقداً عليه وحسداً له . ثم طوعت له نفسه قتل أخيه ، واجتمع له الملأ من أهل الكيد وأصحاب الغدر والخيانة يأتمرون بالملك ليقتلوه ، فصاغوا له تابوتاً من ذهب وأولموا له وليمة كبرى ، ثم جلس الناس يسمرون وقد تقدم الليل ، ثم جيء بالتابوت وتسابق الملأ اليه يظهرون أعجابهم به ، يختلفون على الاضطجاع فيه . حتى إذا كان دور الملك ، وأخذ فى التابوت مضجعه ، وضع من فوقه الغطاء فأحكم ، وعمد القوم إلى الغطاء فثبتوه بشيء من قطر ورصاص . ثم حملوه فألقوه فى اليم وأسلمه النيل إلى البحر ، وحمله الموج إلى فينقيا ، ثم قذف به على ساحل بِبْلُس ؛ فما كاد يستقر على الشاطىء ، حتى أنبت الله من فوقه شجرة مديدة الغصن وارفة الظل ، قامت من فوقه فأظلته وحمته ثم أخفته عن عين الرقيب . ثم مر بالشاطىء حاكم ببلس فراقته الشجرة حتى آثر الاحتفاظ بها ، ثم أمر بها فاقتلعت ثم حملها معه وأقاموا من جذعها عاموداً يرفع به سقف بيته .

وأما ايزيس فقد ذهبت تبحث عن أخيها وزوجها فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يشقيها بحث ولا يصيبها يأس ولا يناالها كلل ولا أعياء ثم هداها البحث إلى ببلس فجاءتها ، ثم قدر لها الوصول إلى قصر الحاكم فدخلته وأقامت فيه ، ما شاء الله أن تقيم .

ثم يتاح لها الوصول إلى جذع الشجرة ، فاذا هى تخلص من صورة البشر ، وتغدو روحاً إلهية خالصة لا يدركها حس ولا تراها عين ؛ ثم تحمل الجذع فتركب به البحر إلى مصر حيث انتبذت به من أحراش الدلتا مكاناً قصياً ، وأقامت عليه نادبة باكية . على أنها غادرته إلى حين ، ومضت تنظر إلى وحيدها اليتيم ، فى مدينة « بوتو » ؛ وكان « ست » قد خرج للصيد فى إحدى

الليالى المقمرة ، فاذا هو يعثر بتابوت أخيه ، فيثور لذلك أشد الثورة ، ويقسم ليخرجنّ جثته من التابوت ، وليمزقنها تمزيقاً وليمثلن بها أشنع تمثيل ، وليطرحنها أشلاء فى أقصى الأرض ؛ ولكن إيزيس ، التى لا تعرف اليأس ولا تضيق بالحوادث ، تعاود البحث عن جثة أخيها وزوجها ؛ وكانت كلما نزلت بأقليم من أقاليم الوادى ، وعثرت به على عضو من أعضاء القتيل ، دفنته وأقامت عليه باكية نادبة . وهكذا استقر صلبه فى « بوصير » من أعمال الدلتا ، واستقر الرأس فى أبيدوس ، واستقرت بقية الأعضاء فى أقاليم البلاد المختلفة . وهكذا ودع هذا الملك الطيب حياته على هذا النحو المريع ، فنزل من قلوب المصريين منزلة الحب والتقديس ؛ فهو لا ينزل عن عرش الدنيا إلا ليتربع على عرش الخلود ، وما يكاد يغادر سلطانه فى الدنيا ، إلا ليستأنفه فى الآخرة على عالم الموت . ولا يكاد الناس يدعون أوزيريس يستشهد ، على نحو ماقدمنا ، حتى استولدوا له « إيزيس » فولدت « حوريس » الذى ما كاد يخرج إلى الدنيا حتى دفعه الشعب إلى الانتقام لأبيه والمطالبة بعرشه ، والتف من حوله شيعة أبيه فأيدوه ونصروه ، ثم أسموه « حورس المنتقم لأبيه » . وانقسمت البلاد من أجل ذلك حزبين وتنازعت أقاليم مصر قبر الشهيد ، وتنافسوا فى خلق الأسباب لهـــذا النزاع ، واستغلت هذه القصة استغلالا سياسياً ، ما تكاد عصور التاريخ أن تفرغ منه . واستغل اوزيريس وولده ، فى التطاحن السياسى بين أقاليم البلاد المختلفة استغلالا قوياً ، وراء ستار عريض ، ظاهره الدين الحنيف ، وباطنه الأغراض والأطماع .

فمنذ أواخر الأسرة الخامسة أو ما قبل ذلك بقليل ، نرى فى صفحات القبور وما يتصل بأهلهـا من كتابات ونقوش ، أثراً ظاهراً وظلا خفيفاً لدين أوزيريس . فهو إذ يطالعنا من بين آثار ذلك العصر كإله للموتى ، فاذا بأثره يظهر ويشتد ، وإذا بظل عبادته يمتد ، ثم يطغى على ما بقى لأله الموتى القديم « أنوبيس » ، فيكاد يمحوه . ثم لا يلبث حتى يفرض دينه على

الناس فرضا . فبعد أن كانت أوعية الموتى فى الدولة القديمة لا تكاد ترتفع إلا لأنوبيس ولا تكاد تتصل إلا باسمه ، أصبحت منذ ذلك الوقت ترتفع إلى أوزيريس ؛ فهو سلطان الحياة الأخرى كما كان ملكا فى الأولى . وهو وحده القادر على أن يهىء للناس منازلهم فى عالم الخلود .

كان أول أمره ربا « لبوصير » فى شرق الدلتا ؛ وأكبر الظن أن دينه قد نشأ فيها ، ثم بدأ ينتشر فى نواحى الأرض ، حتى كاد يبتلع الأديان جميعاً ، مايكاد ينزل باقليم إلا ابتلع دينه ومحا آيته من القلوب أو كاد . نزل « ممفيس » فابتلع إلهها ، « سوكريس » ، وبلغ « ابيدوس » وأهلها يومئذ على دين ابن آوى ، فاتخذ صفاته ومزاياه وما زال به حتى ابتلعه ومحا آيته . وعُرف منذ ذلك الوقت باسم « خنتى امنتيو » ، أى رب أصحاب اليمين ؛ وأصحاب اليمين هم أهل القبور من وادى العدم فى غربى البلاد ؛ وهكذا أصبح « اوزيريس » ربآ لابيدوس وسلطاناً على الغرب فى آن واحد . منذ ذلك الوقت اطمأن المصريون إلى أن قبره فى أبيدوس ، فغدت كعبة لهم فى الحياة والموت ، واستقر فى عقائدهم أن مدخل الغرب وعالمه ، لا يكون إلا من « ابيدوس » . وأصبح منتهى أملهم أن يكون مستقرهم الأبدى حول قبر ذلك الشهيد ؛ مثلهم فى ذلك كمثل شيعة على بن أبى طالب ، يحجون إلى كربلاء حيث مقتل الحسين وحيث قبره ومشهده ، يبغون حوله جوار الأبد ومقر الخلود .

وعلى الذين لا يستطيعون دفن موتاهم فى أبيدوس ، أن يحملوه اليها حاجين إلى قبر « أوزيريس » ، مطوفين به ضارعين إلى رب الغرب أن يهىء لموتاهم منازل أخرى . فاذا ما قضى الحج عاد الناس بموتاهم أو بحثث موتاهم إلى حيث أراد الله لها أن تسكون . على أن هذا الحج لم يكن يخلو من أثر ظاهر . فمنهم من يقيم له قبراً وهمياً ومنهم من يقيم لحجه لوحة تذكارية كلها أدعية خالصة يبتغون بها عند ربهم الوسيلة .

كتب على هذه المدينة التاريخية أن تكون وادياً للعدم منذ فجر التاريخ وقدر لها ذلك الحظ العظيم من التقديس والأجلال منذ مطلع الحياة المصرية فيها .

فيها دفن أول ملوك الأسرات التاريخية الأولى ، وما زالت أطلال قبورهم بادية فى ظاهر الصحراء من وراء العرابة ، وفى المكان المعروف باسم « أم العقاب »*، الذى يقوم فيه ذلك القبر المعروف بقبر « أوزيريس » ، على أن الأبحاث التاريخية التى قام بها العلماء فى تلك المنطقة ، فى أوائل القرن الحالى ، أثبتت أن القبر لم يكن لأوزيريس ، وإنما كان لأحد ملوك الأسرات الأولى ويدعى « زر » ؛ إلا إنه استقر فى عقائد المصريين بعد تقادم العهد على أن القبر لأوزيريس .

ومن هنا كثرت آثار « القعاب » حوله ، تشير إلى كثرة ما كان يقدم إلى هذا الأله من قربان وتضحيات ، وفى الجنوب من جانب العرابة تقع جبانة الدولة الحديثة ومعبد سيتى الأول ومعبد رمسيس الثانى ثم ذلك المكان المعروف بالأزيريون . وفى الشمال من ذلك يرتفع أحد التلال بطائفة من قبور الدولة القديمة . وفى أقصى الشمال فيما بين هيكل أوزيريس المعروف بكوم السلطان والحصن المعروف بشونة الزبيب ، تقع مقابر الدولة الوسطى وأغلبها من اللبن على شكل أهرام . وفى تلك المنطقة أيضاً تقوم طائفة من قبور الدولة الحديثة ، يرجع تاريخها إلى مابين الأسرة الثامنة عشرة والعشرين وما بعدهما .

ولما نهضت مصر نهضتها المعروفة عند أوائل القرن السابع عشر قبل

---

* سمى المكان بهذا الاسم لما وجد فيه من آثار أوعية الفخار ، التى كانت تقدم فيها الضحايا على قبر الشهيد ولقد سمعت مرة أن بعض الناس يظنون أنها أم العقاب (البقايا) فى لغة أهل الصعيد . على أننى أميل إلى الاعتقاد بأنها أم القعاب ، لا أم العقاب ، والقعاب جمع قعب فى لغة أهل الصعيد . والقعب آنية من الفخار يستعملها الناس للحلب وحفظ اللبن .

ميلاد المسيح وأتيح لنهضتها من طهر البلاد من العناصر الأجنبية ، وانبعثت فى الشعب المصرى روح الفتح والغارة وقامت الامبراطورية المصرية وامتد ظلها إلى أطراف الجزيرة من وادى النهرين ، تغيرت أساليب الحكم فى البلاد واتخذ الأباطرة المصريون من طيبة مهب الثورة الوطنية ومبعث النهضة القومية ، عاصمة لامبراطورية الدنيا فى ذلك العهد . وكان نجم الاله آمون قد سطع ، فأقيمت له المعابد وفتحت باسمه الفتوح ، واقترن النصر باسمه . وأصبح كهانة وسدنة بيته من أشد رجال الامبراطورية بأساً وأبعدهم أثراً فى سياسة البلاد الداخلية والخارجية . وامتد نفوذهم فى القرن الرابع عشر حتى وصل إلى القصر وتغلغل فى البلاد وأصاب الجالس على العرش وهو يومئذ أمنوفيس الثالث فصفعهم صفعة أخرست ألسنتهم إلى حين . واضطرب لها نجم طيبة وإلهها معاً ، فيهجرها الملوك إلى الدلتا ، حيث استقر عرشهم فى العاصمة « برامسو » الجديدة ، وإن كانوا لم ينصرفوا عن طيبة تماماً . فى ذلك الوقت الذى انصرف فيه الملوك بعض الشىء عن طيبة وإلهها وأصبحت أبنيتهم غير قاصرة على آمون وسدنته ، خطر لسيتى الأول أن يقيم مجد كعبة البلاد الدينية القديمة ، وأن يبعث تاريخها من جديد . فشيد فيها ذلك المعبد العظيم ، الذى ما زال قائماً حتى اليوم . وهو من أجمل معابد المصريين جميعاً . كشف عنه ماريت باشا أيام والى مصر محمد سعيد باشا . ونشر أبحاثه فى كتابه المعروف : Mariette. Abydos. وتعاقبت الاكتشاف من بعد ذلك على يد Petrie و De Morgan وكل أبنية المعبد

بهو فى معبد ابيدوس

من عصر سيتى الأول ، حاشا بعض أفنيته الخارجية فهى من أيام ابنه رمسيس الكبير . ونقوشه من أجمل ما صاغت يد الفنان المصرى فى عصور الفن جميعا .

أضاف رمسيس الثانى هذه الأفنية إلى مدخل المعبد ، ومنها البناء الخارجى الذى لعبت به يد السنين ، حتى ذهبت بجدته وبهائه وطاحت بأبراجه فأزالتها ولم يبق من آثاره غير هذه الحوائط البالية ، وما يعلق بها من تماثيل الملكين العظيمين سيتى الأول ورمسيس الثانى ، والتى تمثلهما فى شكل الإله أوزيريس . وأغلب الظن أنه بُنى على أن يكون ساحة يحشد فيها الناس من طوائف الشعب ، يوم زينة البلاد وأعيادها الكبرى . ولينظروا فيها بأس الملك وشدته ، فهناك مناظر الحروب والوقائع الكبرى ، وتمثيل الفتك بالأعداء وقطع أيديهم ، وفيها مناظر الأسرى وتقديمهم مع الأسلاب والغنائم لإله الأمبراطورية آمون . ثم يلى ذلك الفناء ، فناء آخر دوّن فيه رمسيس الثانى ذكريات الوقائع وتاريخ إتمامه لبناء المعبد . وحلاّه بمناظر تمثل شكره لإله الامبراطورية ، على ما أحرزه من نصر على أعدائه الآسيويين . وأكبر الظن أن المعبد إنما بُنى ليكون مجمعاً لآلهة البلاد الكبرى ، والثالوث المعبد المكوّن من إيزيس وأوزيريس وسيتى الأول .

ففى المعبد مقاصير سبع ، لآلهة مصر السبع والتى عقدت كلها فيه ، وهم أوزيريس وإيزيس وحورس وبتاح وآمون إله طيبة وحورا ختى وسابعهم هو الملك المؤله سيتى الأول .

وأما ما بقى من مناظر المعبد فتكاد تكون كلها دينية خالصة ، وهى سلسلة من فصول مأساة الشهيد . وتمثل قيامه من عالم الموت . وأكبر الظن أن هذه المأساة إنما كانت تمثل فى كل عام ، على مسرح المعبد ، وكان عيدها أشبه ما يكون بعيد القيامة عند أصحاب المسيح .

ولهذا المعبد أيضاً قيمته التاريخية الكبرى ، ففيه مدونة من أكمل مداون

التاريخ الكبرى ، أعنى هذه القائمة التى تحصى ملوك مصر من أول العصر التاريخى حتى أيام الدولة الحديثة من عصر الرعامسة ، وهى ثالثة مداون ثلاث. إحداها فى سقارة والأخرى فى معبد الكرنك .

وعصر سيتى يعد من غير شك العصر الذهبى لتاريخ أبيدوس، ففيه شيد أكبر معابده، ووقف عليه سيتى من الخير والمال ماوفر لكهانه وسدنته أسباب الرخاء واليسر ، وجعل أيامهم أعياداً متصلة، وجعل مدينته وأوقافه من أرض وحيوان وطير حراما على غير أهله ، وشرع لها القوانين والأحكام ، وفرض على من يمسها بسوء أشد أنواع العقاب وآلمها . وعلى مقربة يسيرة إلى شمال ذلك المعبد، شيد رمسيس الثانى معبداً وهو أيضاً لأوزيريس . وقد غلبته الأيام فأصابه الهدم ؛ على أن ما بقى من نقوشه لا يكاد يقل عن نقوش معبد سيتى فى الرونق والجمال وإتقان الصنع ، وفيها تمثيل للحروب وذكر الوقائع التاريخية بين مصر وحتيتا . وأما ما بقى فيكاد يكون كله دينياً خالصاً ، يمثل ما يتصل بالدين من مراسيم وطقوس وتضحية وقربان .

وما أريد فى هذا المكان أن أعرض لوصف مناظر المعبدين وشرحها بالتفصيل ، وإنما أحيل القارىء على كتب الوصف مثل (Baedeker) .

وفى الشمال الغربى من معبد رمسيس وعلى مقربة يسيرة جداً ، تقوم أطلال البناء المعروف بشونة الزبيب . وهو بناء عتيق من اللبن ، لم يحدد الناس الغرض من بنائه حتى الآن ، وإن كان بعضهم يرجح أنه من بقايا أحد الأضرحة العتيقة .

وعلى مسيرة بضع دقائق إلى الشمال الشرقى من ذلك البناء ، تبدو أطلال مدينة أبيدوس القديمة التى يرجع عهدها إلى باكورة العصر التاريخى ، حيث يقوم ذلك القبر المعروف بقبر أوزيريس . ثم نجد أسوار المدينة التى بنيت من اللبن فى أيام الدولة الوسطى ؛ وإلى ناحية الغرب من هذا المكان ، يقوم

دير من العصر المسيحى يرجح Steindorf أنه بنى فى أوائل القرن الرابع عشر المسيحى .

هذه نبذة قصيرة عن تاريخ أبيدوس ، أرجو أن تعطى القراء فكرة ولو بسيطة ، عن مكانة هذه المدينة من مدائن التاريخ الكبرى من ناحية ، وأن تحبب إلى أبناء هذا الجيل البحث فى تاريخ الحضارة المصرية .

أحمد بدوى